في الأدب المقارن

أثر البيئـــة
في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخرى أبو السعود

طبائع الانسان ومواهبه متماثلة حيثما حل من بقاع الأرض، ومجتمعاته متشابهة الظواهر أينما قامت. تتشعب بين أفراد كل مجتمع إنساني عوامل التعاون والتنافس والتحاب والتباغض والمطامع والمخاوف، غير أن للبيئة أثرها في تشكيل المجتمع الانساني الذي تحيط به، بما تعرض أمام أبصاره وأذهانه من مناظر ومسائل تحجب عنه غيرها، وما تفرض عليه من أعمال يمارسها دون سواها، ويكون لهذا وذاك أثره البين في لغة المجتمع وأدبه، مقرونا إلى أثر الطبائع والمواهب التي تشترك فيها الأمم جمعاء

فللبيئة في أدب كل لغة ثلاثة آثار بعيدة المدى: فهي أولاً تؤثر في مبنى اللغة وأصواتها وألفاظها وتعابيرها وتشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها السائرة وحكمها المتواترة، فكل ذلك منتزع من طبيعة الاقليم؛ وهي ثانياً تؤثر في مهن المجتمع وعلومه وفنونه وعمرانه وينعكس كل ذلك في مرآة الأدب؛ وهي أخيراً تعرض دائماً أبداً أمام أنظار الأدباء وحواسهم مناظر طبيعية بذاتها، تسترعي انتباههم وتستجيش نفوسهم وتلهمهم كل ما تجود به قرائحهم في باب عظيم الخطر من أبواب الأدب هو باب الوصف الطبيعي

وأثر البيئة في الأدبين العربي والانجليزي واضح وضوحاً شديداً يكاد لروعته يخفي أثر الطبيعة الانسانية التي تشترك فيها الأمتان ويتفق عندها الأدبان، فأن تباين البيئتين تبايناً شديداً أدى إلى اختلاف اللغة والمهن والعمران والمناظر في المجتمعين، وأدى بالتالي إلى اختلاف أشكال الأدبين وصورها ومواضيعهما وأساليبهما؛ ويمكن إيجاز التعبير عن الفرق بين الأدبين بالقول بأن أحدهما شب في بيئة صحراوية والآخر ترعرع في بيئة بحرية

نشأ العرب في البادية فجاءت لغتهم مشرقة الديباجة متينة البناء قوية التعبير غنية الاشتقاق منتظمة أوزان الشعر متعددتها وحفلت بأسماء ظواهر الطبيعة البرية وحالاتها، وأسماء حيوان البادية وأطوار حياته، واشتقت تشبيهاتها ومجازاتها وأمثالها من القمر والنجوم والكثيب والقطا، والمُنْبَتّ الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى، وورود الماء عباء أكيس، وإلقاء الحبل على الغارب. ولعدم ملاءمة البادية لغير الأدب من الفنون عظمت مكانته بينهم

واشتغل العرب في البادية بالتجارة ينقلونها بين الشرق والغرب، فامتلأت لغتهم بمصطلحات التجارة بعضها عربي وبعضها منقول عن الأمم التي بادلوها التجارة، وامتلأ أدبهم بالتشبيهات المنتزعة من أحوال التجارة: فالقرآن الكريم يكرر في غير موضع تشبيه الخير والشر بالنجدين، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم؛ وعنترة يقول:

حصاني كان دلال المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا

وبثت حياة البادية في العرب صفات الحمية والشجاعة والحرية والأنفة أن يدينوا الملك، وظهر أثر كل ذلك جلياً في أدبهم؛ وأشهر أمثلة ذلك معلقة عمرو بن كلثوم، فهي ديوان العرب في الحماسة؛ وأدى إباؤهم ودوام انتجاعهم الكلأ إلى استمرار المناوشات والوقائع بين قبائلهم، وانعكس ذلك في مفاخراتهم ومنافراتهم نثراً وشعراً

وهذه الصفات الشماء التي تلزم حياة التبدي جعلت العرب ينظرون شزرا إلى الزراعة والصناعة اللتين لم يكن لهما مجال في البادية، ويحتقرون الزراع والصناع الذين تسترقهم الأرض وتستعبدهم السادة، ولا يرون الشرف والعزة إلا في رعي الأبل والتجارة والقتال. فالأخطل يعير بني النجار بصاحبهم، وآخر يفاخر غريمه فيقول:

لحا الله ألأمنا نسبا — وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله — يصوغ الشنوف والقروط بيثربا

والحق أن الشعر الجاهلي مهما يكن قد داخله من تزييف يمثل الجانب الاجتماعي من حياة العرب في الجاهلية تمثيلاً رائعاً؛ ولا يمكن تصور حالة العرب في ذلك العهد إلا على

ما وصفت فى أشعار طرفة ومهلهل وأمثالها

أما مناظر البادية الطبيعية المتشابهة الشديدة الوطأة ، فيبدو أنها لم تُشرِب العرب من حبّ الطبيعة مقدار ما بثت فى نفوسهم من رهبتها والحرص على اتقائها ، ولم تلهمهم من أشعار فى وصف محاسنها قدر ما أوحت اليهم من أشعار فى التأمل فى أحوالها والاستعبار والخشوع ، فلا غرو لم تخرج الصحراء شعراء طبيعيين يصفون محاسن المناظر ، كتلك التى تحفل بها الألياذة والأوديسة ، وإنما أخرجت أنبياء وحكماء فى شتى عصورها

وتحضر الشعب الانجليزى فى جزيرة تحيط بها البحار ، وتجرى فيها الأنهار ، وتتخللها البحيرات ، وتتوالى عليها الأمطار والثلوج والسحاب والضباب ، ويتعاقب فيها الصحو والدجن ، وتنتشر فى أرجائها الغابات والآجام ، وتتتابع فيها الربى والقيعان ، فامتلأت لغتهم بأوصاف البحر والغاب ، وأسماء ما أسكنوها من جان ، واشتُقت منها تشبيهاتهم وأمثالهم ، فاستُعير الضباب لحالة الشك والابهام ، والسحاب للحزن والقلق ، وقالوا فى أمثالهم إن الوقت والمدّ لا ينتظران إنسانا ، وحلت السفينة من مخيلتهم ما كان للجمل لدى العرب من منزلة : فبينما ترى حسان يشبّه تراقص الخمر فى إنائها بتهادى الناقة المسرعة فيقول :

بزجاجة رقصت بماق قعرها رقص القلوص براكب مستعجل

يُشبّه ملتون « دليلة » وهى شاخصة فى عظم جرمها وتمام زينتها وعتادها الى « سمسون الجبار » لاختداعه عن سر قوته بالسفينة المنشورة الشراع

وامتلأت قلوب الانجليز بحب البحر ، وظهر أثر ذلك فى أدبهم فى كل العصور : فى روايات شكسبير كالعاصفة وتاجر البندقية ، وفى تواريخ أمراء البحر الانجليز ككتاب « وستورد هو ! » الذى سماه مؤلفه كنجزلى باسم البلدة التى أنجبت معظم أولئك البحازين الذين يسمون بأفذاذ ديفون ، وككتاب سَوذى عن نلسون ، والروايات الخرافية عن البحارة الذين لاقوا الأهوال وطوفوا فى مسالك البحار ، أمثال روبنسون كروزو ، واسكندر سلكرك ، وجليفر ؛ وأوصافُ البحر وقصصُهُ تكون جانباً كبيراً مما يعرف بأدب الأطفال

ولم يشغف الانجليز بالبحر وحده ، بل بالماء حيث حل من البقاع ، وأيا اتخذ من الأشكال ، فهاموا حباً بالأنهار والبحيرات ، ونال اقليم البحيرات فى غرب انجلترا مكانة سامية فى قلوب شعراء الانجليزية ، واتخذه شعراء النهضة الرومانسية مستراداً ومقاماً ، وحفلت دواوينهم بأوصافه ومحاسنه ، فحل فى انجلترا محل جبال برناس التى كانت ترتادها آلهة الشعر فى بلاد اليونان

وحفل الأدب الانجليزى كذلك بذكر الغاب ووصفه فى مختلف أوقات العام ، واتخذ مسرحاً لروايتى « كما تشاء » و« حلم ليلة فى منتصف الصيف » لشكسبير ، وفى الأخيرة تمتزج الحقيقة بالخيال ، وتختلط الاناسىّ بعرائس الغاب وعفاريته ، وفى تلك العرائس المتخيلة نظمت أشعار كثيرة ، وفى تلك الغابات كان يعيش روبن هود وجماعته ذات الوقائع الممتعة ، وبالجملة بثت طبيعة بلاد الانجليز المتعددة المناظر والحالات ألْفةَ الطبيعة والشغف بها فى نفوس الانجليز ، فاحتلت من أدبهم موضعاً مكيناً

ولموقع الجزيرة وإحاطة البحار بها اشتغل الانجليز بالتجارة ، ينقلونها بين العالمين القديم والجديد ، وقد مارسوها بحراً على حين مارسها العرب براً ، فدخلت تعبيراتها وأوصافها فى أدبهم ؛ واشتغلوا بالزراعة للامة الاقليم وحفل جانب من أدبهم بوصف سكان القرى والبلدان الريفية ، وحياتهم ومجتمعاتهم ، وكثر ذلك خاصة فى العصور الحديثة حين تقدم فن القصص وازداد التفات الأدباء إلى الحياة اليومية والطبقات الوسطى والدنيا . ومن خير أمثلة ذلك روايات جين أوستن وتوماس هاردى ؛ واشتغل الانجليز كذلك بالصناعة الكبيرة لوفرة المعادن فى بيئتهم ، فقام نوع من الأدب يدرس مشاكل الصناعة ويصور مجتمع الصناع ، وانصرف بعض الروائيين ، كأرنولد بنيت ، إلى وصف حياة الرأسماليين ، وبعضهم ، كتشارلز دكنز ، إلى درس أحوال العمال والمناداة بتحسينها

هكذا تأثر كلا الأدبين بالبيئة التى قام فيها ، فاختلفا لذلك مناحى ومواضيع وأشكالاً ؛ بيد أن البيئة التى تقدم ذكرها إن هى إلا البيئة المحلية المحض ، وهى على عظيم تأثيرها فى المجتمع والأدب قلما تنفرد بالتأثير فيهما ، بل تشاركها فى ذلك بيئة أوسع أطرافا هى البيئة العالمية ، أى العالم كله بما فيه من ظواهر

طبيعية وما يسكنه من أقوام ، فهيهات أن يعيش مجتمع فى بيئته المحليـة غير متأثر بالعالم الخارجى تأثراً قل أو كثر ، عن طريق التجارة والغارة والرحلة ، وذلك الأثر العالمى يعرض أمام أفراد المجتمع من الظواهر والمشاكل ما كانوا عنـه بنجوة ، ويُدخل فى لغتهم وأدبهم ما كانوا به جاهلين

تأثر الشـعبان العربى والانجليزى بأحوال العالم الخارجى ، أى بالبيئة الـكبرى ، ولـكنهما اختلفا فى هذه البيئة كما اختلفا فى البيئة المحلية ، إذ تأثر كل منهما بما يليـه مباشرة من أجزاء تلك البيئة العالميـة : وما يلى بلاد العرب هو الأمم الشرقية من فرس وهند وروم شرقيين ومصريين ، ذات الحضارة الشرقية العتيدة والملـكيات القديمة ؛ وما يلى الانجليز هو الأمم الغربيـة الوارثة لحضارة الأغريق والرومان ذوى التاريخ الحافل بالنظم الحـكومية والآراء الحرة فى السياسـة والاجتماع ، وبذلك ازدادت صبغتا الأدب تباينا

تأثر العرب بحضارة الأمم التى كانوا ينقلون متاجرها . ولا سيما الفرس والروم ، وكانت لهم بهؤلاء علاقات سياسـية ولأكابرهم إلى ملوكهم سفرات ، وإلى اشـتغال قريش بتلك التجارة ومخالطتها تلك الأمم يرجع ذلك الرقى الأدبى والمـادى الذى بلغته قبيل الاسلام ، وظهورها على القبائل فى الثروة والجاه والشرف واللغة ، وإنجابها عظماء الرجال الذين على أيديهم توطدت دولة الاسلام ، فكانت مكة قبيـل الاسلام فى حال من التمدن وسط بين همجية البداوة ونعومة الحضارة

ولو استمر تأثر العرب بالبيئة الخارجية طبيعياً محدوداً هكذا لازدادوا رقياً وازدادت لغتهم بهاء وأدبهم ازدهاراً ؛ ولـكن التوسع الخارجى الذى أعقب نجاح المسلمين الحربى المفاجئ أوقف ذلك التأثر البطىء ، وأحدث انقلاباً تاماً فى مجرى الأمور ، فلم يمُدّ تأثر الأدب العربى بالعالم الخارجى مقصوراً على النقل التدريجى ، بل انتقل الأدب ذاته جملة من وطنه الأصلى وهجر بيئته الأولى إلى بيئة أو بيئات جديدة فى الشام والعراق ومصر والأندلس وغيرها ، والأدب العربى فى انتقاله هذا ومهاجرته هذه من وطن إلى وطن نسيج وحده بين آداب الأمم

وجد الأدب العربى نفسه فى بيئـة جديدة ، فى أراض مزروعة مثمرة ، وأمم مترفة مستقرة ، وبلدان عامرة متحضرة ، ذات علوم وصناعات ، فتأثر بهذه البيئة الجديدة فى ثلاث النواحى سالفة الذكر : فى مفردات اللغة وتعبيراتها التى ازدادت بالنقل والتعريب ، وفى المهن ومظاهر العمران ، ووفى وصف مناظر الطبيعة الجديدة ، فكثر فى الأدب ذكر الرياض والأزهار

على أن تأثر الأدب فى الناحيتين الأولى والثالثـة كان قليلاً نسبياً لغنى اللغة فى الاشتقاق الذى أغناها عن الامعان فى التعريب ، ومحافظة العرب التى نفّرتهم من استعمال ألفاظ اللغات الأخرى وأخيلتها إلا ما جاء عفواً أو ضرورة ، وحرصهم على احتذاء أسلافهم حتى ظلوا يقلدونهم فى وصف البيـد والخيام والنؤى والعيس ، وهم يعيشون بين الأرياف والعواصم ، فقامت هذه التقليدات للمتقدمين فى الأدب العربى كالمتحجرات فى عالم الجيولوجيا : قد فقدت كل حياة ولم تعد إلا رموزاً للماضى

ولم يشغف العرب شغفاً حاراً بمظاهر الطبيعة التى صادفوها فى بيئتهم الجديدة ، وكأنّ نفرتهم القـديمة من قسر الطبيعة لم تفارق نفوسهم ، وكأن كل ما كانوا يطمحون اليـه بعد أن طووا الأميال ضرباً فى فلوات الجزيرة وهواجرها ، ظلٌّ ظليل وماء سلسبيل وهواء بليل ، تريح الجسوم وترويها وترفه عنها بعد طول الـكد ، فغض أدبهم الطبيعى بذكر راحة الجسم ولذات الحواس ، دون طويل تأمل فى محاسن الطبيعة واجتلاء لأسرارها وتَقصٍّ للذكريات والآمال عندها ، وأجمعُ الأمثلة لذلك قول الشاعرة الأندلسية :

وقانا لفحـــة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحـــه فحنا علينا ... حنوَّ المرضعات على الفطيم
وأرشـــفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنـــديم
يصـد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبهـا ، ويأذن للنسيم

إنما كان أشد تأثر الأدب العربى فى بيئته الجديدة بالناحية الثانية ، ناحية العمران ، ناحية الحياة المستقرة فى البلدان ، المعتمدة على الزراعة والصناعة ، الخاضعة للملـكية ، وهى عكس حياتهم فى البادية تماماً ، فانغمر الأدباء فى جو المدن ، واعتزلوا الطبيعة ونكأ كأوا على بيوت الأمراء ، وتزاحموا على مجالس الطرب والشراب ، واستفرغوا جهدهم فى انتهاب فرص الحياة من جاه

ومال ورفاهية ولهو ، وتأثر الأدب بذلك : فلم يعد يتغنى بالنجدة والبأس والقناعة ، بل طاب له الاستظلال بساطان الحاكمين ، يترنم بمدحهم بعد أن كان أمثال عمرو بن كلثوم يثورون على نيرهم ، وتفنن فى وصف مظاهر التحضر وضروب الترف واللهو فى المدن

أما الأدب الانجليزى ، فتأثر بالبيئة العالمية فى النواحى الثلاث — نواحى مبنى اللغة ومظاهر العمران ومناظر الطبيعة — تأثراً كبيراً : فاللغة الانجليزية تدين للغات الأجنبية ولا سيما اللاتينية بأكثر مفرداتها وطرق اشتقاقها وكثير من تعابيرها ومجازاتها ؛ والمجتمع الانجليزى تأثر بالمجتمع الايطالى فى عصر الأحياء ، وبالمجتمع الفرنسى فى عصر لويس الرابع عشر ؛ ولم يخلُ فى عصر من التأثر بحالة العمران فى أوربا ، إذ كانت الحضارة الأوربية الحديثة مشتركة بين شتى الأمم ؛ وباطلاع الانجليز على أوصاف الطبيعة فى الآداب الكلاسيكية ازدادوا شغفاً بمفاتن بلادهم ، وزادوا فوصفوا محاسن الطبيعة فى إيطاليا وبلاد اليونان وغيرها

تأثر الأدب الانجليزى بالبيئة العالمية فى شتى النواحى ، ولكنه لاستقراره فى وطنه الأول وبيئته المحلية جاء تأثره بالأولى بطيئاً محدوداً لم يطغ على خواصه المحلية ، بل ظلت للبيئة المحلية المكانة الأولى والآثار الواضحة فى الأدب ، ولم يزد الأثر الخارجى على أن أضاف إلى العناصر المحلية ما يناسبها ويخصبها من العناصر الأجنبية ، وكلما احتجن الأدب جانباً من تلك العناصر مثّلها ومزجها بنفسه وصبغها بصبغته الخاصة

فالأدبان العربى والانجليزى قد نشآ فى بيئتين طبيعيتين مختلفتين وترعرعا فى مجتمعين متباينين ، وتأثرا بعوامل عالمية مختلفة ، وهاجر أحدهما من بيئته الأولى إلى بيئة جديدة بينما ظل الآخر فى وطنه الأول ، فلا غرو أن يختلف الأدبان فى الصبغة والمناحى والأوضاع والأغراض والأخيلة ، اختلافاً يروع الناظر فيهما فيخيل إليه أن ليس هناك تشابه بينهما قط ، ولا وجه للموازنة والمقابلة ، وبكاد يخفى ما فيهما من تعبير مشترك عن شتى النوازع النفسية والظواهر الاجتماعية ، التى تتفق فيها الطباع الانسانية ، فى شتى المجتمعات ، ومختلف البيئات

فتحى أبو السعود

خطر الفاشستية
على سلام العالم
ومشكلة البحر الأبيض المتوسط
بقلم باحث دبلوماسى كبير

لم يبد خطر الفاشستية على سلام أوربا وسلام العالم كما يبدو اليوم ؛ ولقد كان رأينا دائماً أن الفاشستية وما تقوم عليه من مبادىء العنف ، وما يحدوها من الأطماع المضطرمة ، وما تؤكده بأعمالها وتصريحاتها من احتقار لمبادىء الحق والعدالة الدولية ، إنما هى مصدر دائم للشر والخطر على السلام ، وبخاصة على الأمم الضعيفة التى تدين بوجودها واستقلالها لمبدأ الحق الطبيعى لا للقوة الغاشمة ؛ بيد أن الفاشستية لم تبد من قبل بمثل هذه الجرأة المكشوفة ، وهذا التحدى الواضح ، وهذا التوثب لارتكاب العدوان والشر ، وهذا الاستخفاف بحقوق الشعوب ومصايرها كما تبدو اليوم

منذ أكثر من عام نظمت إيطاليا اعتداءها المثير على الحبشة ، واستطاعت لا بحرب شريفة مشروعة ، ولكن بوسائل همجية ممقوتة أن تقهر هذه الأمة المنكودة وأن تضمها لأملاكها ، وأن تقيم على أنقاض الحريات المقصوبة إمبراطورية استعمارية تصول بها اليوم ؛ وفى الصيف الماضى استطاعت الفاشستية الايطالية وحليفتها النازية الألمانية أن تضرما فى أسبانيا نار ثورة مضطرمة ، وما زالتا إلى اليوم تمدان العسكرية الثائرة بالسلاح وكل صنوف المعاونة ، وما زالت أسبانيا تتلظى فى جحيم الحرب الأهلية ، لأن الفاشستية والنازية تود كل منهما أن تحقق لنفسها ظفراً معنوياً يكون مظهره قيام حكومة طغيان فاشستية فى اسبانيا على أنقاض الجمهورية ، وظفراً مادياً يقوم بتحقيق بعض المصالح السياسية والعسكرية التى تطمح كل منهما إلى تحقيقها

وكما أن مسألة البحر الأبيض المتوسط كانت أثناء الاعتداء الايطالى على الحبشة مثار الخطر والاحتكاك المستمر بين إيطاليا وبريطانيا العظمى ، فكذلك تثير الحرب الأهلية الاسبانية